# الوساطة بين المتنبي وخصومه

للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني

تحقيق وشرح

محمد أبو الفضل إبراهيم　　　علي محمد البجاوي

حقوق الطبع محفوظة

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل النقد فى القرن الرابع إلى أوْجه ، فصار خصبا ، متّسع الآفاق ، معتمدا على الذوق الأدبى السليم ، مؤتنسا بمناحى العلم فى الصورة والشكل لا فى الجوهر والروح ؛ إن حلل فبذوق سليم ، وإن علل فبمنطق سديد ، وإن عرض لفكرة أتى على كل ما فيها(١).

واحتفى – أو كاد – تبعا لذلك ، أو نتيجة له ، من حَلْبته اللغويون والنحاةُ ، وحمل رايتَه الأدباء ؛ يتميز نقدُهم باستقصاء البحث ، وشمُول الفكرة ، وتوضيح العلل ، والموازنة السامة بين الشعراء ، وعُنُوا بدراسة الشعر وتقدير رجاله ، وتخاصموا فيهم ؛ فهذا ينتصر لأبى تمام ، وذاك يتشيّع للبحترى ، وهؤلاء يرفعون من مقدار المتنبى وينسبون إليه كل فضيلة فى الشعر ، وأولئك ينتقصون منه ويرْمونه بالتعقيد والمماظلة والالتواء ؛ وعمرت بأحاديثهم مجالس الأدب ؛ وسارت مقالاتهم وكتبهم فى كل صُقْع ووادٍ .

من هؤلاء أبو الفرج الأصفهانى ، وابن العَميد ، والصاحب بن عَبّاد ، وأبو على الحاتمى ، وأبو الحسن بن لنْكَك البصرى ، والآمدى ، والجُرْجانى .. . إلا أن أبا الحسن الجرجانىّ كان أصْرَحَهُم نقدا ، وأوسعهم أفقا ، وأشملهم بحثا .

فقد ظهر المتنبى فملأ الدنيا وشغل الناس ، كما يقول ابن رشيق ، واختصم الأدباء فى شعره ، وقطعوا الأزمان المتواصلة فى تحديد أغراضه ؛ وتعصّب له فريق ، وغضّ من شأنه فريق ، وكان من الذين غضّوا من شعره الصاحب بن عباد ، وألّف فيه رسالة سمّاها : «الكشف عن مساوى المتنبى » ، أقامها على التنقص منه ، والحطّ من مقداره . وقد ذكر الرواة أن الصاحب كان هيّن المكانة حين وفد المتنبى على ابن العميد ، وكان يودّ لو قصده أبو الطيب ؛ فلما تجاهله جزع وسخط ، وألّف فيه هذه الرسالة ؛ وذكر

(١) تاريخ النقد الأدبى للأستاذ طه أحمد إبراهيم : ١٤٧ .

فيها من شعر المتنبي أمثلة للغموض والتعقيد والركاكة وقبح الألفاظ واستكراهها .

وكان أبو الفتح عثمان بن جنى من ناحية أخرى يرفع من مقداره ؛ ويشيد من ذكره ؛ وأصبح لكل منهما أشياع .

كتاب الوساطة

فى هذه الحلبة وذلك المعترك ألّف القاضى على بن عبد العزيز كتاب « الوساطة ». قال الثعالبى فى اليتيمة :

« ولما عمل الصاحب رسالته المعروفة فى إظهار « مساوى المتنبي » عمل القاضى أبو الحسن كتابه « الوساطة بين المتنبي وخصومه فى شعره » ؛ فأحسن وأبدع ، وأطال وأطاب ، وأصاب شاكلة الصواب ، واستولى على الأمر فى فصل الخطاب ، وأعرب عن تبحّره فى الأدب وعلم العرب ، وتمكنه من جودة الحفظ ، وقوة النقد ؛ فسار الكتاب مَسير الرياح ، وطار فى البلاد بغير جناح ، وقال فيه بعض العصريين من أهل نيسابور :

أيا قاضياً قد دنتْ كتبه ... وإن أصبحَتْ دارَه ساحِطهْ

كتابُ الوساطة فى حُسْنِه ... لعِقْدِ معاليك كالوَاسِطَهْ

وقال صاحب كشف الظنون :

«أما القاضى أبو الحسن فإنه ادّعى التوسط بين خصوم المتنبي ومحبّيه ، وذكر أن قوماً مالوا إليه ، حتى فضّلوه فى الشعر على جميع أهل زمانه ، وقوماً لم يمدّوه من الشعراء وازْدَرَوْه غاية الازدراء حتى قالوا : إنه لا ينطق إلا بالهوى ؛ ولم يتكلم إلا بالكلمة العوراء ، ومعانيه كلها مسروقة . فتوسط بين الخصمين ، وذكر الحقّ من القولين » .

وليس كتاب الوساطة مختصًّا بشعر المتنبي كما يفهم من عنوانه ، بل إنه عَرَضَ للاصول الأدبية التى عرفت فى عصره ، وحلّل أشعار القدماء والمُحْدَثين ؛ وأوْرَدَ كثيراً من محاسنهم وعيوبهم ، وأبان ما شاع فيها من تعقيد وغموض ، وأخذ وسرقة ،

واستعارة حسنة أو رديئة ، ثم عرض للبيئة وأثرها فى الشعر والبداوة وما تحدثه من جَفْوةٍ فى الطباع ، والحضارة وما ينشأ عنها من رِقَّةٍ وسهولة ، ثم عرض لخصوم المتنبي وأنصاره ، ومعانيه المأخوذة أو المخترعة . . . كل ذلك وغيره أوردهُ فى أسلوب واضح ، وعرض شامل ؛ مما ستراه حين تمضي فى قراءة الكتاب .

**مؤلف الكتاب :**

هو أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانىّ المشهور بالقاضي .

ولد فى جُرْجَان سنة ٢٩٠ هـ ، ونشأ بها ، وكانت الدولةُ الإسلامية قد بلغت نُضْجَها العلميّ ، وتعددت الحواضِرُ الإسلامية تزخَرُ بالعلم والعلماء، وأصبحت الرِّحلة سبيلَ التعلم والدَّرْس ؛ فجاب الأرضَ ، وزار العراق والشام والحجاز ، ولقِيَ مشايخ وقتِه وعلماء عَصْرِهِ ، واقتبس العلومَ والآداب ، وصار فيها عَلَماً وإماماً .

اشتهر بالفقه ، وترجم له الشيرازى فى طبقات الفقهاء ، وفسّر القرآن الكريم ، وذكره السيوطى فى طبقات المفسّرين، واشتغل بالتاريخ وله فيها آثار ، ثم هو شاعر مُتْقِن ، وكاتبٌ مترسّل ، وناقد لَوْذعيّ بصير . وفيه يقول صاحب اليتيمة :

« حَسَنة جُرجان ، وفَرْد الزمان ، ونادرة الفَلَك ، وإنسان حَدَقة العلم ، ودُرّة تاج الأدب ، وفارس عسكر الشعر ، يجمع خطّ ابن مُقْلة ، إلى نثر الجاحظ ، ونظم البحترىّ ؛ وينظم عقد الإحسان والإتقان فى كل ما يتعاطاه » .

وفيه يقول الصاحب بن عبّاد :

إذا نحن سَلَّمنا لك العلمَ كلّه ... فدعْ هذه الكتْبَ تحسنْ صدورَها
فإنهمُ لا يرتضون مجيئَنا ... بجزْءٍ إذا نظَّمتَ أنت شذورَها

عرف له الصاحب فضلَه فولّاه قضاء الرَّى ، وكانت حضرةُ الصاحب محطّ رحال العلماء والشعراء والأدباء . واحتفّ به من نجوم الأرض وأبناء الفضل وفرسان الشعر مَنْ يُربى عددهم على من اجتمع على أبواب الرشيد ، مثل : أبى الحسن السلامى ، وأبى بكر الخوارزمىّ ، وأبى طالب المأمونى ، وأبى القاسم الزعفرانىّ ،

وأبى الفضل الهمذانى . . . وغيرهم .

ولكنّ القاضى على بن عبد العزيز كان آثرَهم عنده ، وأقربهم إليه ؛ لفضله ومكانته ، وعلوّ منزلته ، وشرَف نفسه . قال أبو نصر التهذيبى :

سمعت القاضى أبا الحسن على بن عبد العزيز يقول : انصرفتُ يوماً من دار الصاحب ـ وذلك قبيل العيد ، فجاءنى رسولُه بعطر الفِطْر ، ومعه رقعة بخطه فيها هذان البيتان :

يأيهـــا القاضى الذى نفسى له　　　معْ قرْب عهد لقائه مشتاقــهْ

أهديتُ عِطْرًا مثلَ طيب ثنائه　　　فـكأنما أهدِى له أخـــلاقَهْ

قال ، وسمعتُه يقول : إنّ الصاحب يقسم لى من إقباله وإكرامه بجرجان أكثر مما يتلقانى به فى سائر البلاد ، وقد استعفَيْتُه يوماً من فَرْطِ تَحَفِّيه بى ، وتواضعه لى ، فأنشدنى :

أكرمْ أخاك بأرض مولده　　　وأمِدَّه من فعلك الحسَنِ

فالعزّ مطلوبٌ وملتمسٌ　　　وأعزُّه ما نيـــلَ فى الوطنِ

وكتب إلى حسام الدولة أبى العباس تاش الحاجب يقول : « قد تقدم من وصفى للقاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز فيما سبق إلى حضرة الأمير الجليل صاحب الجيش ـ دام علوّه ـ من كتبى ما أعلم أنى لم أؤَدّ فيه بعض الحقّ ، وإن كنتُ دلَلْتُ على جملةٍ تنطق بلسان الفضل ، وتكشفُ عن أنَّه من أفراد الدّهر فى كل قِسْم من أقسام الأدب والعلم ؛ فأما موقِعُه منّى فالموقعُ الذى تخطب فيه هذه المحاسن ، وتوجبه هذه المناقب ؛ وعادته معى ألّا يفارقنى مقيماً وظاعناً ، ومسافراً وقاطناً . وقد احتاج الآن إلى مطالعة جرجان ، بعد أن شرطتُ عليه تصيير المقام كالإلمام ، فطالبنى مكانُه بتعريف الأمير مصدره ومورده ؛ فإن عنّ له ما يحتاج إلى عَرْضه وجدّ من شرف إسعافه ما هو المعتاد من فضله ؛ ليتعجّل انكفاؤُه إلىّ بما رسم ـ أدام الله أيامه ـ من مظاهرته على مايقدّم الرحيل ، ويفسح السبيل ؛ من بَذْرَقَةٍ[1] إن احتاج إلى الاستظهار بها ،

(١) البذرقة : الخفارة فى الطريق .

ومخاطبة لبعض مَنْ فى الطريق يتعرف النَّهْـج فيها ، فإن رأى الأميرُ أن يجعلَ من حظوظى الجسيمة عنده تمهدَ القاضى أبى الحسن بما يعجّل ردَّه ؛ فإنى ما غاب كالمضلّ الناشد ، وإذا عاد كالغانم الواجد ؛ إن شاء الله ».

وقد عرف القاضى أبو الحسن للصاحب كيف يَجْزِيه عن وُدِّه، ويكافئه عن تحفّيه به ؛ فسيَّر فيه مدائحَ يقول فيها الثعالبى : « أخلصت على قصْد ، وأتت من فَرْد ، وما فيها إلا صوْب العقل ، وذَوْب الفضل » .

ومن قوله فيه يهنئه بالبُرْء من المرض :

أفى كلِّ يوم للمكارم رَوْعـةٌ ... لهـا فى قلوب المكرُمـات وَجيبُ
إذا ألِمَتْ نفسُ الوزير تألَّمتْ ... لهـا أنفُسٌ تحيـا بهـا وقُلوبُ
ووالله لا لاحظتُ وَجْهًـا أحِبُّـه ... حياتى وفى وجهِ الوزير شُحوبُ
وليس شحوباً ما أراه بوجْهِهِ ... ولكنه فى المكرماتِ نُدُوبُ
تهلَّلَ وجْهُ المجد وابتسم الندى ... وأصبح غُصْن الفَضل وهو رطيبُ
فلا زالتِ الدنيا بِملْكك طلقةً ... ولا زال فيها من ظلالِكَ طيبُ

* * *

قال الحاكم فى تاريخ نيسابور : « ولم يزل أبو الحسن يتقدّم إلى أنْ ذُكِر فى الدنيا، وحُمِل تابوتُه إلى جرجان فدُفن بها ، وصلّى عليه القاضى أبو الحسن عبد الجبار ابن أحمد، وحضر جنازته الوزير الخطير مجد الدولة ، وأبو الفضل العارض راجلَيْن[١]. وكان ذلك ـ كما يقول ابن خلكان ـ سنة ٣٦٦[٢] ؛ وعمره ٧٦ عاما » .

**أدبه وآثاره :**

أما آثاره فقد ذكر منها ياقوت فى معجم الأدباء « تفسير القرآن الكريم » ، وكتاب « تهذيب التاريخ » ؛ نقل عنه ابن خلدون فى تاريخه الكبير ، وذكره

(١) راجلين : سائرين على أقدامهما .

(٢) فى معجم الأدباء : جزء ١٤ صفحة ١٥ : مات بالرى يوم الثلاثاء لست بقين من ذى الحجة سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة . وكذلك فى تاريخ أدب اللغة لجورجى زيدان ٢ ـ ٣٩٢ . وفى ابن خلكان ( ١ ـ ٥٨٤ ) : وقال غير الحاكم: توفى سنة ٣٩٢ ، ونقل الحاكم أثبت وأصح .

الثعالبي فقال : « إنه تاريخ في بلاغة الألفاظ ، وصحة الروايات ، وحسن التصرف في الانتقادات » ، وأورد فصلين منه في يتيمة الدهر ؛ ثم كتاب « الوساطة بين المتنبي وخصومه » — وقد سبق الحديث عنه — وله ديوان شعر ذكره ابن خلكان ؛ يجمع بين العذوبة والجزالة ؛ وتترقرق فيه شمائله السمحة الرضيّة ، ونفسه الكريمة الأبية ؛ فمن غزله الرقيق :

أفْدِي الذي قال وفي كَفِّهِ ... مثلُ الذي أشربُ مِنْ فيـهِ
الوردُ قد أينَعَ في وَجْنَتِي ... قلتُ : فَمِي باللَّثْمِ يَجْنِيه

ومن قوله في الحنين إلى بغداد :

أراجعة تلك الليالي كعهدها ... إلى الوصل أم لا يُرْتجى لي رجوعُها
وصحبة أحبابٍ لبست لفقدهمْ ... ثيابَ حدادٍ يُسْتَجَدُّ خليعُها
إذا لاح لي من نحو بغداد بارقٌ ... تجافت جُفُوني واستُطِير هُجوعُها
سقى جانبيْ بغداد كلُّ غمامةٍ ... يحاكي دموعَ المستهام هُمُوعُها
مَعَاهِدُ من غِزْلانِ أُنسٍ تحالفتْ ... لواحظُها ألّا يُداوَى صريعُها
يحنّ إليها كلُّ قلبٍ كأنّما ... يُشاد بحبّاتِ القلوب ربيعُها
فكلُّ ليالي عيشها زَمَنُ الصِّبَا ... وكلُّ فصولِ الدهرِ فيها ربيعُها

ومن قوله يصف نفسه :

يقولون لي فيكَ انقباض وإنما ... رأَوْا رجُلاً عن موقفِ الذُّلّ أَحْجَما
ومازلتُ منحازاً بِعِرضيَ جانباً ... من الذّمّ أعتدُّ الصيانةَ مَغْنَما
إذا قيل هذا مشربٌ قلتُ قد أرى ... ولكنَّ نفسَ الحرّ تحتمل الظّما
ولم أقْضِ حقَّ العِلْمِ إنْ كان كلّما ... بدا مطمَعٌ صيَّرْتُه ليَ سُلّما
ولم أبْتذِلْ في خدمة العِلْمِ مُهْجَتي ... لأخْدُمَ مَنْ لاقيتُ لكن لأُخدَمَا
أأشقى به غرْسا وأجنيه ذِلّةً ... إذاً فابتياعُ الجهل قد كان أحْزَما
ولو أنّ أهلَ العِلْمِ صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس تعظّما

وقد أورد ياقوت فى معجم[1] الأدباء ، والثعالبى فى يتيمة الدهر[2] ، طائفة من شعره ، تدور حول الفخر والمدح ، والغزل وغيرها من فنون الشعر .

**مخطوطة الكتاب وعملنا فيه :**

وهذا الكتاب كان قد نشره الأديب الأستاذ أحمد عارف الزين بمطبعة العرفان فى صَيْدَا سنة ١٣٣١ هـ ، وذكر أنه اعتمد على مخطوطتين إحداهما عراقية والثانية فى المكتبة الأزهرية . ثم طبع مرة أخرى فى مطبعة محمد على صبيح .

وكلتا هاتين المطبوعتين تخلوان تماماً من الضبط ، ويشيع فيهما الخطأ . ولما شرعنا فى نشر هذا الكتاب رجعنا إلى نسخة مخطوطة بالمكتبة الأزهرية برقم ١٥٢٦ أدب ، وهى فى نحو ١٣٠ ورقة كتبها بخطه سويفى بن أحمد العدوى سنة ١٣٢٨هـ عن نسخة كتبت فى سنة ١٣٢٦هـ ، وهذه الأخيرة كتبت عن نسخة مكتوبة سنة ١٣١٦هـ وهى نسخة يشيع فيها الخطأ والتحريف وقد رمزنا إليها بالحرف (ب) كما رمزنا إلى النسخة المطبوعة فى صيدا بالحرف ا .

ثم عمدنا إلى مراجعة نصوص الشعر على دواوين الشعراء وكتب الأدب ، وضبط الأعلام على المعاجم وكتب التاريخ ، وشرحنا بعض ماغمض من الكلمات والعبارات؛ لنذلل الصعاب ونساعد القارئ على متابعة أفكار المؤلف والانطلاق فى آفاقه .

ثم وضَّحْنا معالم الكتاب بعُنْوَاناتٍ تقرّب مَرْماه ، وتوضّح غايته ، ومعظَمُها اقتباس من نصّ المؤلف ؛ إذ كان الكتاب كله رسالة واحدة ، ومقالة يمضى فيها المؤلف من أول الشوط إلى نهايته ، وشفعناه بالفهارس المتنوعة .

وفى هذه الطبعة الجديدة عدنا إلى الكتاب فزدْنا فى شرحه وضبطه وتحقيقه ؛ كفاء لما لاقى الكتاب من إقبال وتشجيع .

ونرجو أن نكون قد جعلناه فى صورة أدنى إلى الكمال ، وأقرب إلى الإتقان ؛ ونسأل الله أن يجعله عملاً نافعاً مقبولاً .

شعبان سنة ١٣٨٦ ( نوفمبر سنة ١٩٦٦ ) **المحققان**

---

(١) الجزء الرابع عشر صفحة ١٥ وما بعدها .
(٢) الجزء الرابع صفحة ٣-٢٢ .